صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني
الياس بطرس الحويك

بقلم المؤرخ منصور عوّاد عوّاد

٧
موقف البطريرك من فرنسة

قيل ، والحق في ما قيل : ثلاثة اشتهر بها الموارنة في الشرق والغرب وكانت لهم بمثابة العلامة الفارقة ألا وهي حبّ الله ، وحبّ رومية ، وحبّ فرنسة ! اجل ان تاريخ الموارنة الديني الذي كتب بالماء والفاقة والجوع والضنك والشقاء والاضطهاد والنار والدم يختصر في المحبة الثلاثية الآنفة الذكر . . وهي انهم لاجل دينهم ، ولاجل تعلقهم برومية وفرنسة ، تحملوا ما احتملوه وقاسوا ما قاسوه طيلة أجيال ! فالبطريرك اللبناني مجموعة التقاليد المارونيّة الصحيحة كلها والامين في المحافظة عليها ، كان لا بدَّ ان تتجلّى فيه تلك التقاليد الشعبيّة العريقة في القدم تقاليد محبة الموارنة لفرنسة . ولا غرو فانه فوق ما عرفه بتصفّحه التاريخ من ارتباط الشعب الماروني بشعب فرنسة منذ عهد القديس لويس ، ملك فرنسة ، وارتباط رؤسائه بملوك فرنسة ، فانه كان قد رضع مع حليب والدته ذلك الحب وتشنّفت اذناه باخبار فرنسة وقديسيها وابطالها يسمعها في بيت والده من والده واهل قريته ، عندما كانوا يجتمعون في ليالي الشتاء حول الموقدة ، ويتحدّثون عن فرنسة ، صديقة الموارنة ومجامیتهم القوية ، وعن رجالها واعمالهم وبطولتهم .

ثم حدثت حوادث سنة ١٨٦٠ ، عهد كان لا يزال في مدرسة الآباء اليسوعيين دارساً اكليريكيًّا في غزير ، فشعر بخجل صداقة فرنسة وحمايتها التي

كان يطالع عنها الصفحات الذهبية في تاريخ الطائفة والشرق المسيحي ، اذ رأى بأمّ العين جيوش فرنسة تأتي الى لبنان لحماية النصارى عموماً والموارنة خصوصاً ، والدفاع بالارواح عن ارواحهم ! رأى بعينه مفعول تلك الحماية يوم ضُمنت بفضل فرنسة وجيشها لبقية الموارنة المسيحيين المقيمين في لبنان وسورية النجاة من موت ذريع كان قرّره لهم الجهل والتعصّب الذميم والسياسة الحرقاء ، وعُوّض عليهم ما خسروه من مال ومتاع وما هُدم لهم من بيوت او أُحرق من دور ، وانالهم في لبنان الاستقلال النوعي ترعاه الدول الكبيرة المعروفة في ذلك الوقت ، وعرف انه لو أُتيح لفرنسة كل ما شاءت وشاء حبها للموارنة واوجبت تقاليدها عليها لكانت منحت لبنان استقلالاً تامًّا . وعرف ان جنود الامبراطور نابوليون الثالث كانوا يحملون على اكتافهم الحجارة ويبنون بايديهم بيوت الموارنة التي أُحرقت في دير القمر وبيوت سائر النصارى المقيمين فيها معهم . فادرك ان الذي قرأه في الكتب عن فرنسة وعن محبتها للموارنة وعن احسانها اليهم وتضحيتها في سبيلهم كان حقيقة لا خيالاً . وكان احسان الافرنسيين والافرنسيات يتدفق على اللبنانيين ، وخاصة على الموارنة ، باستمرار ، فنسي الموارنة المنكوبون بؤسهم لاجل فيضان ذلك الاحسان .

أُتيح للبطريرك اللبناني بعد ذلك بعناية خاصّة ان يكمل دروسه في رومية ، فشاهد بعينيه جنود الامبراطور نابوليون الثالث تحمي باموال فرنسة وسيوفها وبنادقها ومدافعها وبدماء ابنائها حرّية البابا وملك الكنيسة ، وظلّ ذلك المشهد إلف عينيه طيلة الايام التي قضاها في المدينة الخالدة اي من خريف سنة ١٨٦٦ الى صيف سنة ١٨٧٠ فادرك بالحسّ ان ما كان يطالعه عن ان فرنسة هي ابنة الكنيسة البكر ، والمدافعة عن حقوق الكنيسة في الشرق والغرب ، وحامية الكاثوليك في الشرق كلّه ، لم يكن حديث خرافة بل كان حقيقة تاريخية عاشت فيها فرنسة من عهد ملكها بيبنو الى يومه .

عاد الى لبنان ، والحقته العناية الربانية بالبطانة البطريركية المارونية وكان اميناً لاسرار البطريرك ، فاضطرّ بحكم الوظيفة ان يعرف مقدار الاحسان الذي كانت ترسله فرنسة الى الموارنة لبنيان الكنائس وتجهيزها وتأسيس المدارس

ونشر المعارف ومساعدة البؤساء ، واختير بنفسه عطف الشعب الافرنسي والاكليروس الافرنسي على شعب لبنان واكليروسه اذ كانت تُبعث من قبلها المقادير العظيمة من حسنات القداسات لاعاشة الكهنة الموارنة . فكان الشعب الماروني في نظر الشعب الفرنسي ونظر حكوماته ، على اختلاف مذاهبها السياسية ونزعاتها الحزبية ومعتقدات رجالها الدينية ، شعباً فرنسياً آخر يقطن على شواطئ البحر المتوسط في ارض فينيقية المجيدة القديمة ؛ فكان يعامله معاملة الاخ لاخيه او قل معاملة الامّ لوحيدها المغترب المحتاج الى كل عطف الامّ واحسانها ومعاونتها وحمايتها .

وادرك البطريرك اللبناني ، وهو امين اسرار البطريركية المارونية ، ما الدور الذي مثّلته وتمثّله فرنسة كل يوم في سبيل حماية الاستقلال اللبناني السياسي والاقتصادي ، فازداد قلبه ولوعاً بفرنسة واشتدّ تعلقه بها وتعرّف على كثير من رجالها في ظل بطريركه العظيم بولس مسعد ، وعلى كثير من قناصلها ورجالها الرسميين ، وكانت له معهم محاورات ومبادلات نظريات وتقارير ادارية وسياسية وتهذيبية عرفه بواسطتها رجال فرنسة وعرّفوه الى فرنسة في باريس وحكومتها وعرفهم بدوره . وكبرت منزلة فرنسة عنده يوم أرجعت على مدرّعة من مدرّعاتها المطران بطرس البستاني ، مطران صور وصيدا ، رجل الوطنية والجرأة والفضيلة ، من منفاه ، ونصرته على متصرّف جبل لبنان رستم باشا ، وعلى دولة بني عثمان التي كانت تؤيد متصرّفها لكسر شوكة الموارنة ورؤسائهم[1] . وكانت صداقته مع رجال فرنسة متينة ظلّ يذكرها الى يوم وفاته .

أُسندت الى المطران الياس الحويك مهمّة تجديد المدرسة المارونية في رومية ، بدء بطريركية البطريرك يوحنا الحاج ، فأمّ رومية لهذا الغرض ولمّا تعرف بالمثول لدى قداسة السعيد الذكر البابا لاوون الثالث عشر والتمس منه ان يأذن له بالذهاب الى فرنسة لاستمداد أكفّ المحسنين لاستكمال ما يلزم من المال

---

١) راجع في هذا المعنى ، اي معنى علاقات البطريرك الحويك مع رجال فرنسة وسفرائها وقناصلها وما عمله في سبيل لبنان عهد كان في خدمة البطريركية المارونية كاهناً واسقفاً ، ترجمة حياته للعامل المفضال المتوري اسقف بطرس حبيقة ، وهي سلسلة اجزاء باللغتين العربية والافرنسية .

لارجاع المدرسة قال له الحبر الاعظم : «ان هذا صعب في هذه الايام لاني سمعتُ لمطران من رومانية ان يؤمّ فرنسة لفرض مشابهٍ فعاد اليوم ولم يجمع نفقات سفره . » فاجاب المطران الياس الحويك بلهجة الواثق : « ايها الاب الاقدس ، للموارنة في فرنسة غير ما لسواهم فنحن تعتبرنا فرنسة كأولادها ومتى أذنت لي قداستكم بالذهاب الى فرنسة رأيت مرأى العين اني صادق في ما اقول . » فاستغرب لاوون الثالث عشر تلك اللهجة المقرونة بالثقة الشديدة . ولكنه أعارها كل اهتمامه ووثق بها كل الثقة ، وفوّض الى المطران الحويك كل ما كان يلزم لتلك المهمة . وما طال امر سفره حتى حقق للحبر الاعظم ما كان سبق فقال كانه يراه بعينه لان الشعب الفرنسي اقبل على مساعدة مشروعه لتجديد المدرسة المارونية في رومية باريحية وسخاء وسرعة ، وكان الاقبال من الشعب ومن رؤسائه الروحيين ولاسيما من رئيس اساقفة روان ، الذي ارتقى في ذلك العهد الى رتبة الكردينالية وكان صديق الحويك وشفيعه ونصيره لدى شعبه ولدى قداسة البابا لاوون الثالث عشر ، الكردينال توما . وفي الوقت عينه نال من عطف الحكومة الافرنسية انها انعمت على الطائفة المارونية بثمانية كراسٍ مجانية لطلبة الموارنة الاكليريكيين في مدرسة سان سولبيس .

ومنذ ارتقى الى السدّة البطريركية الى يوم وفاته كانت علاقاته مع فرنسة سلسلة محبة واحسان وحماية . ولولا فرنسة في الحرب واحسانها لما ابقت المجاعة التي دبّرها الترك واذنابهم واشباههم من رجال الجشع والطمع بقية من شعبه الماروني العزيز على قلبه .

فبفضل فرنسة انتشرت الرسالات الدينية الفرنسية في لبنان وسورية ، وبفضل ابناء فرنسة وبناتها تهذّب الشعب الماروني في اموره الدينية والادبية والاقتصادية والسياسية والعلمية وصار لديه منهم افراد يفاخر بهم أرقى شبان فرنسة والعالم المتمدن ، وبفضل اموالها ازدهرت طائفته ازدهارًا نادر المثال . لذلك كانت داره البطريركية في عهد الحكومة التركية ذاتها محطًّا لرحال رجال فرنسة وكبارها يزورونه كلما زاروا سورية او لبنان . وكانت عندهم دار البطريركية المارونية دار فرنسة في الشرق ، ومشورة كلمة السيد ميلران ،

رئيس جمهورية فرنسة سابقاً، عندما زار البطريرك اللبناني في كانون الاول ١٩٢٧ وقال على المائدة شارباً نخب البطريرك : « اني سعيد لوجودي في هذا البيت التاريخي الذي كان دائماً بيت فرنسة في الشرق »[1]

عندما استدعي البطريرك الحويك الى صوفر وكان الذي استدعاه طاغية لبنان وسورية في الحرب الكونية ، جمال باشا ، وقال له: « انك تحب فرنسة. فكيف تحبها وهي عدوّتنا ؟ ! » اجابه بلهجة حازمة وصادقة وصريحة : « قد تعوّدنا ان نحب المحسنين الينا ، وفرنسة كانت في كل زمان ومكان محسنة الينا لذلك لا يسعنا ألّا نحبها. ان حبنا اياها لا يحول دون قيامنا بواجباتنا نحو دولتنا العلية. ولو غمطنا احسان فرنسة وجحدنا فضلها لما اعتبرنا احد مخلصين لدولتنا. لان الذي ينكر احسان المحسن اليه لا يكون اميناً لاحد ! » فتهيّبه جمال باشا لصدقه وجرأته وسذاجة تعبيره !

تلك المحبة وتلك الجرأة وتلك التقاليد التي اجتمعت في البطريرك اللبناني هي التي اجمعت قلوب اللبنانيين ، على اختلاف اديانهم وطوائفهم ونزعاتهم ، على محبة البطريرك وتقديره قدره وتوكيله عنهم للمطالبة بالاستقلال للبنان برعاية الانتداب الفرنسي. وقد لبّى طلب اللبنانيين بطيبة خاطر وحمّل شيخوخته انتقال السفر الى باريس حاملاً صك التوكيل في الاوراق التي بيديه منهم وصك الاماني اللبنانية في قلبه وعقله ، الى مؤتمر ڤرسايل سنة ١٩١٩ ، وما عاد ألّا وصك الاستقلال بين يديه بوعد رئيس الحكومة الفرنسية السيد كليمنصو الذي ما عتم ان نُظر في الفعل حقيقة تاريخية سيأتي الكلام عليها.

ومنذ الاحتلال الفرنسي ثم الانتداب ثم اعلان استقلال لبنان الى وفاة البطريرك اللبناني كانت البطريركية المارونية مرجع اللبنانيين والفرنسيين معاً. فكان البطريرك الحويك واسطة خير وسلام بين الفريقين. فكان اباً للبنانيين بحبه ونصائحه وحكمته ، وصديقاً للفرنسيين حميماً مخلصاً لا يهاب ان يقول لهم الحقيقة بجلاء وصراحة اذا هم طاش سهمهم في سياستهم او ارتكبوا غلطاً في

١) راجع ايضاً الجزء الرابع من ترجمة البطريرك اللبناني للخوري اسطف بطرس حيقة ، المطبوع سنة ١٩٢٩ في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت ، ص ٢٢

بعض تدابيرهم ، قارناً قوله احياناً ببعض المؤاخذة الوالدية . وكان يردّد عليهم عندئذ المثل العربي المأثور : « صديقك من صدقك لا من صدّقك . » وما زاره فرنسي الّا خرج يقول في سرّه وفي علنه : « لم اشاهد رجلاً فيه وقار هذا الشيخ وصدقه وحكمته ووطنيته ولم يخطر ببالي قط ان رجلاً لبنانيًا تكون فيه لفرنسة هذه المحبة الصادقة النيّرة المجتمعة مع محبته الحقيقية لبلاده لبنان »

لم يستخدم نفوذه لدى فرنسة ولا خدماته لمصلحته او لمصلحة طائفته بل اراد من فرنسة ان تكون في البلاد رسول عدلٍ وسلام للجميع . ولم ينظر الى رجال فرنسة في اديانهم او معتقداتهم الشخصية بل نظر اليهم كممثلين لفرنسة التي احبها وطلبها منتدبة على بلاده ، وقد صرّح بذلك مراراً ولم يأنف من ترداده على مسامع الجنرال سارايل يوم جاء هذا مندوباً سامياً للبنان وسورية ، وكان مشهوراً بمدائه للدين ولرجاله . ان كلمة البطريرك اللبناني مشهورة في هذا المعنى : « يهمني في من يتولى مصالح البلاد عدله ونزاهته لا مذهبه ! » .

لم ينتفع البطريرك اللبناني لنفسه ولا لبطريركيته في وجود فرنسة في البلاد ولا من وجودها . فان البطريركية كانت في جميع ايام بطريركيته بيتاً مفتوحاً للافرنسيين وللبنانيين . وفي سبيل فرنسة ولبنان انفقت الاموال الكثيرة ، واستدانت الديون الباهظة وقد مات البطريرك اللبناني والبطريركية مثقلة بالديون رازحة تحتها . وقد بلغ ما باع من املاكها الثابتة قياماً بتلك المهمة الوطنية خمسة وثمانين الف ليرة عثمانية ذهباً جدّد من اصلها للبطريركية بخمسة وعشرين الف ليرة عثمانية ذهباً .

ولم يقل يوماً لفرنسة او لاحد من ابنائها انه مدين لاحد او انه خسر مالاً على احد في سبيلها او في سبيل البلاد ! عاش عزيز النفس في حب فرنسة وحب بلاده . ومات عزيز النفس في حبه فكان امثولة شريفة في المحبة والتضحية والاخلاص لابنائه وللبنانيين وللافرنسيين ولكل انسان . كان مثالاً في الحب المجرّد ولاجل المصلحة العامة ولاجل عرفان الجميل . مع انه لو طلب من فرنسة اضعاف اضعاف ما خسره لاجلها وبسببها وفي سبيل المصلحة المشتركة بين شعبه

وبنيها ، في اي وقت كان ، لما كانت ضنّت عليه باضعاف ما انفقه في سبيلها وسبيل خير بلاده وهي التي انفقت الملايين ولا تزال تنفق الملايين احساناً الى شعوب لا تعرفها وفي سبيل تمدين امم تجهلها .

لذلك اسف عليه في موته الافرنسيون أسف ابنائه عليه واشترك رجال الانتداب جميعهم في لبنان وسورية في حفلة دفنه مما لم يسبق له نظير ، اظهاراً لتقديرهم اياه وشعورهم بخسارته الجسيمة . ولم يكن رجال الحكومة في باريس اقل حزناً عليه من رجال الانتداب في لبنان وسورية ، كما دلّت برقيات التعازي التي بعثوا بها واشتراكهم واشتراك ممثلهم في جميع جهات العالم في حفلات الصلاة التي أقيمت لاجل راحة نفسه في كل ارض من اراضي الهجرة للمارونية ، بل بانبراء نخبة من رجال الدين والسياسة بينهم الى تأبين الراحل العظيم في تلك الحفلات بافضل ما قيل في رجل على الارض !

أجل احبّ البطريرك اللبناني فرنسة لاجل احسانها الديني والادبي ، لاجل تضحيتها باموالها ورجالها في سبيل حماية الموارنة ورقيّهم الديني والادبي والسياسي والاقتصادي ، احبها لانها ابنة الكنيسة البكر ، احبها لانها أغنت البيعة المقدسة بقديسيها وقديساتها وشهدائها في كل عصر ومكان ، احبها لانها حملت مشعل المدنية المسيحية الى مجاهل افريقية واطراف المعمور وصبغت بدم رجالها وشهدائها الارض القصيّة ، احبها لان الكيان الماروني اللبناني لولاها لما كان له وجود في الوجود ، احبها لان مرسليها من الرهبان والراهبات هم له خير جنود في تهذيب ابناء طائفته وبلاده وبفضلهم صار لبنان يضاهي برقيّه ارقى شعوب اوربة في جميع شؤونه الدينية والعلمية ، احبها لانه رأى فيها صدى لما كان يسمعه بالنقل عنها في بيت والديه في حلتا ولا شيء أحب الى الانسان واعذب من تذكارات طفولتّه اذا رآها طيلة ايام حياته تنمو بنموه وتعيش بعيشته ، فبارك الله في فرنسة التي احبها البطريرك اللبناني !

اننا نقرأ في منشوره الذي اذاعه على الطائفة المارونية في ٨ ك ١ ١٩١٨ ، اي على اثر الاحتلال ، مختصر ما أشرنا اليه . فممّا قال في ذلك المنشور :

« ونحن في تابيتنا داعي القلب ونشر ما ناواه من عواطف الحب والاخلاص والامتنان

السعيد الذكر السيّد بولس بطرس مسعد

بطريرك السريان الموارنة الانطاكي (١٨٥٦ – ١٨٩٠) بزّيه العاديّ

(نقلاً عن اثر نفيس محفوظ بين مجموعة الفيكنت فيليب دي طرازي امين دارَي الكتب والآثا
في بيروت)

الحميد الاثر السيّد اغناطيوس اندراوس اخيجان

اوّل بطاركة السريان الكاثوليك الانطاكيين (١٦٦٢ – ١٦٧٧)

تلميذ مدرسة السريان الموارنة برومية العظمى ، بالزي الحبري

والشكر للامة الافرنسية النبيلة لا تكون قد اتينا امرًا مستغربًا ولا مستجدًا . فان هذه الشواعر قد توارثناها عن الآباء والاجداد وهي راسخة في قلوبنا رسوخ الارز والصخور في جبلنا . وقد زادها تعزيزًا ورسوخًا ما صادفناه على كرّ الاعوام والاجيال من التفات فرنسة وعطفها وتفانيها في سبيل مصلحتنا . نقول هذا ولا نجازف لاننا اذ خلقنا ، وان على غير استحقاق ، بطاركة طائفتنا الاقدمين قد عرفنا تقليداتهم ووقفنا وحافظنا عليها وواصلنا ما بدأوا به من العلاقات الولائية مع فرنسة . وقد اضطرنا الامر غير مرة ان نلتجئ نحن ايضًا اليها ، وان من غير علم منكم ، لكي نحافظ عليكم وتدفع عنكم ما كان يتهددكم من الظلم . وهذه اوراق خزائننا البطريركية اصدق شاهد على ما نقول واسطع دليل على ما لفرنسة في في جنبنا من الحسنات التي تفوق الحصر . فكم قد درأت عنا من الشرور وكم انشأت في بلادنا من المعاهد العلمية والمؤسسات الخيرية وقصارى القول ان فرنسة قد حملت على عاتقها كل واجبات حكومتنا نحونا دون ان تحمّلنا شيئًا من اثقالها وعليه يحق لنا بل يتوجّب علينا ان نخصّها بالشكر الجزيل وبهذا نكون قد نسجنا على منوال الاجداد الاماجد الذين من مقرّ راحتهم يحبّوننا ولا شك عملنا » (١)

وكان قد سبق وجاهر بهذه العواطف في عهد الحكومة التركية نفسها عندما نكبت فرنسة بطغيان بعض انهارها في فيضانه سنة ١٩١٠ فاذاع نشرة على الطائفة المارونية في ٤ شباط ١٩١٠ (٢) واستنهض بها الهمم للاكتتاب لاجل مساعدة المنكوبين على سبيل الاقرار بجميل فرنسة . ومما جاء في تلك النشرة :

« اجل ايها الابناء الاعزاء ، اننا تتألم اخبار هذه الكارثة النازلة بفرنسة بانقباض في النفس وضيق في الصدر . ولا شك انكم جميعًا تشاركوننا في هذه العواطف لما نعلم وتعلمون ان الامة الافرنسية الكريمة تسير في مقدمة الامم لنصرة المنكوبين ولها السبق في عمل المعروف والاحسان مع ذوي البأساء لدى كل ملمة طارئة فلا يخلو مكان من آثار برّها وسخائها وخصوصًا هذه الديار السورية . وهي تأتي هذه الاعمال المجيدة عن كرم مزّة وطيب محتد لا تطلب عوضًا ولا تسأل بدلًا على انها وان كانت بفضله تعالى في غنى عن كل مساعدة اجنبية لما توفر لها من اسباب الثروة وموارد الرزق فان سنّة عرفان الجميل تقضي على عموم ابناء هذه الديار ، وخصوصًا ابناء طائفتنا ، بان يقوموا باظهر الشكر للنعمة المعترفين بالفضل . وعليه فانا ايها الابناء الاعزاء ايذانًا بمعرفتنا جميل الامة الفرنسية المحسنة قد افتتحنا اكتتابًا لاسعاف المنكوبين من ابنائها فنرغب اليكم جملةً وافرادًا ان تتباروا في السخاء لهذا الغرض كلٌّ بقدر طاقته . »

وافضل ما طفحت به نفسه من الشعور الشريف وفاض على شفتيه وقلمه ما صرّح به في منشوره التاسع عشر من آي الشكر لفرنسة عندما اعلنت

(١) الذخائر السنية ، ص ٤٩٧ وما بعدها . (٢) الذخائر السنية ، ص ٨٧٦ و ٨٧٧

استقلال لبنان وتوسيع نطاقه بارجاع حدوده الطبيعية اليه ، فقد قال في ذلك المنشور الذي اذاعه في ٨ ك١ سنة ١٩٢٠[1] .

« والآن ، وقد ابدت لنا الامة الافرنسية النبيلة في ضيقتنا وشدة محنتنا برهاناً جديداً ساطعاً على حبها لنا ولمصلحتنا واهتمامها بأمرنا ، وفازت سياستها الرشيدة في هذه البلاد وتحققت الآمال التي عقدناها على شهامتها وعطفها علينا فنال لبناننا العزيز استقلاله وتوسّع نطاقه وبُعث شعبه امّة حيّة سيكون لها شأن ، ان شاء الله ، بين الامم الراقية ، فقد توجب علينا ان نؤدي الشكر الجزيل لفرنسة ونبين بولائنا واخلاصنا لها ولرجالها المتفانين في سبيل مصلحتنا اننا ابناء اولئك الاماجد الذين ذاقوا الامرّين في سبيل حبها والاخلاص لها فلم يصرفهم عن ذلك ظلم الظالمين ولا جور المستبدّين »

ثم خصّ الجنرال غورو المعتمد السامي بكلمة شكر ونوّه بفضله في نشر ألوية الامن والسلام والسكينة فوق هذه الربوع واضاف الى ذلك قوله عنه :

« ثم ما لبث بعد ذلك ان بشّرنا بتحقيق امانينا فأعلن في حفلات بلغت آخر حدود الفخامة بفوز اللبنانيين بجلّ مبتغاهم وكل مطاليبهم . وكان ذلك الاعلان شفاء للصدور ومكرمة جديدة اضافتها فرنسة الى مكارمها العديدة السابغة فأنشت بها آمالنا ووطدت رجاءنا وامّنت مستقبل بلادنا فلها منا الشكر كل الشكر . »

فحيّا الله الرجل الذي يرث التقاليد الحميدة ويحافظ عليها بكل قواه ، ويذكر المعروف في جميع ادوار حياته : في ادوار الحرية والرخاء ، وفي اشد ادوار الظلم والمحنة ! وحيّا ذكره وتبارك ذكر البطريرك اللبناني واسمه فانه كان المثال الاعلى في هذه الامور ! ان دولاً تتغير ورجال الدول يتغيّرون في مبادئهم ويتحوّلون عنها لاجل المصالح الزمنية او السياسية اما البطريرك اللبناني فقد كان يقول : « انا لا اتغير في مبادئي ولا احيد عنها وان تغيّرت الدول وتقلّبت احوالها وانقلب رجالها . »

وكان يردّد ذلك بعبارات أخرى ايضاً فهو القائل : « انا لا اغيّر مبدئي . انا لا ازال على ثقتي بفرنسة » . كان يقول ذلك البطريرك اللبناني ويفعل كما يقول . وفي هذا التوفيق بين القول والعمل سرّ عظمته وسرّ اجتماع الناس على حبه والثقة به فقد عُرف انه فقه ، ولرومية ، وافرنسة ، عن عقيدة وراثية في طائفته ، فاحترم لشباته ولمجاهرته بها ، وسيبقى ذكره فيها محترماً الى ابد الدهر .

---

١) الذخائر السنية ص ٥١٥ و ٥١٦